مؤرخ مغربي معاصر

يصف أحداث أوربا الغربية

خلال سنوات ١٥٨٧ — ١٨٩٦

الدكتور عبد الكريم كريم

كلية الآداب — جامعة محمد الخامس الرباط — المغرب

أولى المؤرخ المغربي أبو فارس عبد العزيز الفشتالي عناية كبرى للأحداث المعاصرة التي عرفتها أوروبة الغربية خلال الربع الأخير من القرن السادس عشر، لدرجة يمكن معها القول بأن المعلومات الهامة والتفاصيل الدقيقة التي أثبتها في مخطوطه القيم (مناهل الصفا) الموجود بخزانة القصر الملكي بالرباط، قل أن نجد لها مثيلا حتى عند بعض المؤرخين الأوروبيين المعاصرين.

وليس هناك من شك في أن وضعية الفشتالي كوزير للمولى أحمد المنصور السعدي ورئيس كتابته الخاصة ثم كجليس خاص للخليفة، قد مكنته من الاطلاع على الكثير من التطورات والأحداث الداخلية والخارجية. وساعدته على تدوين جانب كبير منها.

ويهمنا في هذا البحث أن نكشف الجوانب الهامة من تاريخ أوربا الغربية في نهاية القرن السادس عشر، التي أولاها المؤرخ الفشتالي عناية كبرى في مخطوطه (المناهل) وذلك :

١ — لنستفيد منها في دراسة هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ أوربا الغربية في مطلع العصر الحديث.

٢ — لنستدل بها على مدى سعة أفق بعض المؤرخين المغاربة المعاصرين الذين دونوا أحداث بلادهم الداخلية وأهم التطورات الخارجية المعاصرة لهم.

٣ — ولنبطل الأدعاء الذي طالما ردده الكثير من الأجانب بانعزال العالم

العربى وانكماشه على نفسه خلال العصور الحديثة وجهله لما يجرى من تطورات فى داخل البلاد وخارجها .

اشتدت وطأة الحروب الدينية بأوربة الغربية منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر : للاشتباكات الدموية التى تعددت واجهاتها وتشعبت أهدافها ، لدرجة يمكن معها القول بأن الكثير من ملوك أوربا وأمرائها قد استغلوها لبسط سيطرتهم أو لخلع نير حكم أجنبى ، أو لتحقيق مطامع وأهداف طالما عملوا لأجلها ، وقد كان ملك أسبانيا فيليب الثانى يعمل جاهداً على إقامة دولة مسيحية واحدة تكون قوام إمبراطورية عالمية ، وكان يتخذ من تأييد البابوية فى روما حجة وسنداً للدخول فى حروب ضد الدول الأوروبية بدعوى اعتناق بعضها المذهب البروتستانتى الذى اعتبرته الكنيسة الكاثوليكية بدعة يجب القضاء عليها مع أن هذه الدول قد خرجت أو سعت إلى الخروج ضد فيليب الثانى والوقوف فى وجه أطماعه التوسعية وذلك للتطورات التى عرفتها أوضاعها وظروفها كدول نامية تسعى لتحقيق كيانها السياسى ووحدتها الوطنية ، ومن هذا القبيل بريطانيا وفرنسا وهولندا التى كانت تربطها بالمغرب روابط قوية وخاصة فى الميدان التجارى . وقد أخذت هذه العلاقات تتحول إلى اتصالات سياسية بسبب شعور هذه الدول بالخطر الأسبانى المتزايد . أو بعبارة أوضح ، فإن الخطر الأسبانى قد قارب بين دول المعسكر البروتستانتى بأوربا وبين المغرب الذى كان يتخوف من قيام الأسبان بهجوم عسكرى ، خاصة وأن للاسبان قواعد احتلال عديدة منبثة على شواطىء المغرب الشمالية .

ومنذ انهزام البرتغال فى معركة وادى المخازن (الاثنين ٤ غشت ١٥٧٨) ، اشتدت رغبة فيليب الثانى ملك أسبانيا فى ضم العرش البرتغالى وتوحيد شبه جزيرة ايبريا ، وقد تدلفى قواعد الاحتلال البرتغالى فى المغرب (سبته ، طنجه ، أصيلا ، مازكان) بدعوى حمايتها من الهجومات المغربية ، وأخذ يستغل كل الفرص والظروف للاطاحة بالحكومة البرتغالية التى لم تكن الأيام لتزيد أوضاعها الداخلية إلا تدهوراً واضطراباً ، وخاصة بعد وفاة الكاردينال (هنرى) فى شهر فبراير سنة ١٥٨٠ وعدم توصل الهيئة الخماسية التى ألفت فى لشبونة لتسيير الأمور ، ريثما يبث مجلس (الكورتيز) البرتغالى فيمن سيتولى العرش لتعدد المطالبين وتشعب الاتجاهات واختلافها .

ومن أبرز المطالبين (دون أنطونيو) عم الملك القتيل (دون سباستيان) ، الذى شارك بدوره فى معركة وادى المخازن ونجا من الأسر بأعجوبة ، والملك الأسبانى فيليب الثانى الذى لم يتردد فى استخدام القوة لضم العرش البرتغالى والامبراطورية البرتغالية المترامية الأطراف .

وعندما اخترقت القوات الأسبانية الحدود البرتغالية يوم ١٢ يونية ١٥٨٠ سارع مجلس (الكورتيز) البرتغالى إلى بيعة (دون انطونيو) يوم ١٩ يونيه ، وتصدت القوات البرتغالية إلى مقاومة الأسبان ولكن بدون جدوى ، إذ انهزم (دون أنطونيو) فى معركة (القنطرا) وجرح ثم فر إلى شمالى البلاد ومنها إلى جزر آصور التى وصلها يوم ٢٣ أكتوبر من نفس السنة .

أما فيليب الثانى فقد استقر فى مدينة بطليوس إلى أن جاءه خبر الفتح وتصديق مجلس (الكورتيز) على وحدة العرشين البرتغالى والإسبانى خلال جلسته المنعقدة يوم ١٥ أبريل ١٥٨١ ، ومن مدينة بطليوس انتقل إلى لشبونة التى دخلها دخول الفاتحين يوم ١٣ يوليو فى حين أن (دون أنطونيو) قد أعلن معارضته لذلك ، وجعل من جزر آصور مقراً للثورة ضد الأسبانيين . وعندما أرسل الأسبان قوات بحرية ضد آصور سنة ١٥٨٣ انتقل (دون أنطونيو) إلى فرنسا عند ملكها (هنرى الثالث) الذى أعرب عن تأييده للأمير البرتغالى ومده بمختلف المساعدات ، غير أن أحداث فرنسا الداخلية ، وتجدد الحروب الدينية بها بسبب محاولات الحزب الكاثوليكى الفرنسى حرمان الأمير (هنرى نافار) البروتستانتى من عرش فرنسا بعد أن أصبح المرشح الوحيد له إثر وفاة الأمير (فرانسوا) أخى الملك (هنرى الثالث) سنة ١٥٨٤ ، وتدخل ملك أسبانيا لتأييد الجانب الكاثوليكى من جهة أخرى ، جعل (دون أنطونيو) ينتقل إلى بلاط الملكة الانجليزية (ايليزابيث) بلندن ، التى آوته وشملته بكل عطف وتأييد .

وبانتقال (دون أنطونيو) إلى لندن ازدادت حدة النزاع بين أسبانيا وانجلترا وتباينت شقة الخلاف بين المعسكرين المسيحيين الأوربيين الكاثوليكى بزعامة فيليب الثانى والبروتستانتى بزعامة الملكة إيليزابيث .

والجدير بالملاحظة هو أن كلا من المعسكرين قد سعى جاهداً إلى كسب جانب

الخليفة السعدى المولى أحمد المنصور لما يتمتع به المغرب من ستراتيجية هامة . وللدور العسكرى الذى يمكن أن يقوم به المغاربة عنـــد قيام حروب بين دول المعسكرين الـكاثوليكى والبروتستانتى ، وقد التزم المغرب جانب الحياد بين الجانبين المتنازعين . إلى أن حصلت معركة الأرمادا التى انتهت بانهزام الأسطول الأسبانى (١٠ أغسطس سنة ١٥٨٨) إذ ازدادت الصلات بين الملـكة الانجليزية (إليزابيث) والمولى أحمد المنصور الذى أعلن تأييده للأمير البرتغالى (دون أنطونيو) ، واعترافه بمطالبه المشروعة فى العرش البرتغالى .

وبعد الاتصالات السرية التى جرت بين مراكش ولندن تم الاتفاق على أن ينتقل الأمير (دون كريستوف) بن (دون أنطونيو) إلى المغرب كرهينة فى مراكش مقابل المساعدة المادية والقروض المالية التى وعد المنصور بتقديمها ، إلا أن المولى أحمد استغل وجود الأمير البرتغالى بين يديه للضغط على الملك الأسبانى فيليب الثانى الذى تنازل له دون قتال عن مدينة أصيلا إحدى قواعد الاحتلال الأسبانى بالمغرب ، وللانطلاق نحو غربى أفريقيا لفتح السودان ، وتأسيس إمبراطورية مترامية الأطراف .

لقد أثرت نتائج معركة الأرمادا على الأحداث التى عرفتها أوربة الغربية فعلاوة على الثورات التى ازدادت ضد الأسبان لفقدهم بعض المـكانة التى كانت لهم كأعظم دولة فى العالم ، أخذ خصومهم الذين كانوا يقفون منهم على حذر لسطوتهم وقوتهم ، يصارحونهم العداء ، ويحاولون استغلال هذه الفرصة لرفع نيرهم وإبعاد خطرهم ، أو للانتقام منهم .

وهكذا اندفع الانجليز فى حروبهم ضد الأسبان وتعددت واجهات القتال بين المعسكرين المسيحيين ، وسعى الحلف البروتستانتى بوجه خاص إلى احتلال أهم المدن البرتغالية الساحلية لتتويج (دون أنطونيو) بها ولقطع الطرق التجارية البحرية التى تصل بين أسبانيا من جهة والعالم الجديد والشرق الأقصى من جهة أخرى .

وقد نجح الانجليز أخيرا سنة ١٥٨٩ فى احتلال مدينة قادش إحدى المراكز

الاقتصادية الأمة بشبه الجزيرة الإيبرية ونادوا بالأمير « دون كريستوف » أميراً عليها بعد وفاة والده (دون أنطونيو) بفرنسا سنة ١٥٩٥ .

* * *

وجميع هذه التطورات والوقائع قد دونها المؤرخ الفشتالي في مخطوطه «مناهل الصفا»، وإن لم يكن ذلك بصفة منتظمة لأن الفشتالي كان يدون أخباره بشكل كراريس ومذكرات ولأن بعض هذه الأحداث جاءت بصفة استطرادية أو في معرض حديثه عن الخليفة المنصور وأخبار دولته بالمغرب .

وقد قمت بتنظيم المعلومات التي دونها الفشتالي عن أوربا الغربية خلال الفترة بين ١٥٧٨ - ١٥٩٦ وترتيبها ترتيباً زمنياً لتتم الفائدة المرجوة ودون أن يمس ذلك بالأصل وبشروط الأمانة التاريخية .

١ — أوضاع البرتغال بعد معركة وادي المخازن والصراع بين فيليب الثاني ملك أسبانيا و (دون أنطونيو) المطالب بالعرش البرتغالي :

« فأما ولد طاغية برتقال دون أنطون فقد كان من خبره أن أمير المؤمنين المنصور لما وقع بمجموع الشرك يوم النهر بوادي المخازن حسبما سبق وجدلت سيوفه بستان برتقال واستولى المسلمون على من تخطاه الأجل من سواد المشركين كان ممن أسر يومئذ من طواغيث الشرك دون أنطون عم بستيان طاغية برتقال الهالك أسره بعض زعانفة البربر من مطوعة بلاد الهبط واستالهم بالمال وقد جهلوه فأوصلوه إلى أصيلا وعبر البحر إلى الاشبونة قاعدة برتقال ، وكان القائم بها يومئذ بأمر برتقال من بعد بستيان عمه فرديال ثم هلك لحولين من ولايته فقام بالأمر من بعده دون أنطون هذا ثم طمع طاغية قشتالة أن يغلبه على ملكه بها وأعانه على انتهاز الفرصة فيه ما قدمنا من تلاشي أمر برتقال باستيصال هافتهم وهلاك جموعهم بوادي المخازن الكائن للمسلمين عليهم على يد أمير المؤمنين فزحف إليهم بعساكر قشتالة وكانت أكثر أمم النصرانية جمعاً فخرج دون أنطون لدفاعه فيمن بقي من جموع برتقال فالتقى الجمعان بساحة الاشبونة فكانت الدائرة على دون أنطون ونجى إلى ملكة

بلاد نكلطيرة ابذبيل فنزل منها خير نزل فأوته وشمرت لنصرته » (المناهل ص ١١٢) .

٢ — وصف المعارك والحروب التى جرت بين الأسبان والإنجليز :

« فأظلم الجو بالفتن على طاغية قشتالة وتهالكت فى مشاقته ملوك الأمم النصرانية فكان أشدهم تكالباً عليه وأكثرهم جراءة على الإجلاب على ممالكه والتضييق عليه والأخذ بمخنقه إزبيل سلطانة ممالك بلاد نكلطير ... ثم رام مناهضتها واحتفل فى تجهيز الأسطول لمنازلتها فأوقعت به أساطيلها وارتد على أعقابه مغلولا » (المناهل ص ١٣٥) .

٣ — وصف معركة الأرمادا : [من رسالة المنصور إلى أهل سوس — رسائل سعدية . ص ١٥٠] .

« ذلكم أن عدو الدين الكافر جدد الله حزنه وقوض ركنه وهو طاغية قشتالة الذى هو اليوم ضد الإسلام وعميد الشرك الذى يشرع إليه اللهدم والحسام كان من أمره مع سلطانة بلاد نكلطيرة التى قيض الله منها عدواً من جنسه وضداً شغله عن نفسه بسبب عداوة نشأت عن نزوعها هى وقومها عن ديار النصارى ، وشرعتهم والخروج عن ملتهم فكانت لذلك تغزى الطاغية منذ سنين بأسطولها فى عقر داره وتستأصل المرة بعد المرة بسيوفها جماهر حماته وأنصاره وتقيم كل يوم فى أرضه مآثم ، وتهجم على أساطيله مع البحر غربانها هجوم الليل الهاتم حتى إذا استشرى داؤها العضال وعضته من حروبها الأسنة والنصال سولت له نفسه تجهيز الحركة إلى أقطارها ومنازلتها بمجموعه فى عقر دارها إظهاراً لقوته وإيذاناً من الله باستحصاد شوكته فشمر للأهبة والاستعداد واستنفذ فى الاحتفال الطارف والتلاد حتى تجمعت له من الأساطيل عمارة حافلة مكث فى جمعها أربعة أعوام تباعاً استفرغ فيها غاية مقدوره وجهده واستعمل فيها كل طاقته وجده وعندما كملت أجراها إلى البحر وشحنها بأمم لا تحصى من جموع الشرك ، وأحزاب الكفر بحيث لم يبق أحد من أحزابه ( ) فما فوقه بسائر أقطاره ، وبلاده وقوضت إلى بلاد نكلطيرة تخوض نحوها الأمواج وتبتغى إليها السمو والمعراج حتى إذا دنوا منها وقد أخذت أساطيلها لحربهم الأهبة والاستعداد وقعدت لهم بمنتهى جزيرتها وحدود أرضها بالمرصاد أرسل

الله على أساطيل الطاغية من عنده ريحاً صرصراً أخمتهم فى بلاد العدو على غير نظام ونكست لهم الريات والأعلام فاغتنمت منهم نكلطيرة الفرصة فابتدروا انتهازها وهجم أسطولهم على تلك العمارة القوية فردوا على صدروها أعجازها وأقبل تيار الهلكة على جموع قشتالة كافة واستأصل الله سبحانه لهم الشأفة فلم ينج من الغرق سوى من استأصله السيف وعاجله بحمد الله تعالى السيف ولا خلو من الورطة فى تلك الجموع الكفرية ولله المنة على كثرتها وأربائها على الرمل والحصى فى عددها وعدتها إلا قبطان مدينة لا غير وهو قائد تلك الجموع الكافرة والعصابة الرائحة بالصفقة الخاسرة أفلت وحده من شرك الردى جريحاً ، وكان له الموت لو وجده شافياً من تجرع تلك الغصة ومريحاً » .

٤ — إيليزابيث ومساعيها لدى المنصور لتأييد (دون أنطونيو) ضد الأسبان.

« ثم نظر فى أمره فردا أن جبر صدعهم وبناء ما تهدم من ملكهم لا يتأتى إلا على يد أمير المؤمنين الذى فى هلاكه ضرهم ونفعهم وجبرهم وصدعهم وأنه لا قدرة على تشييد ركنهم إلا نقضه بمعاول سيوفه الأمامية وأسنته اللهدمية فاستخدم له ومد إليه يد التأميل من وراء البحر ، وأوفد عليه ابنه من بلاد لنكلطير صريخاً وضارعاً فنزل باسفى قاعدة البحر ، وبلغ إلى أمير المؤمنين على مكناسة من طريقه لفاس خبر وصوله غرة ربيع النبوى [فاتح ربيع الأول عام ٩٩٧هـ . الموافق منتصف يناير سنة ١٥٨٩] فسرح إلى أبنه المولى الأمير أبى فارس بالحضرة يأمره بإرسال كبير الموالى المعلوجى ببابه القائد محمود لصحابته فوصل به وأنزل بسهريج المنارة من بساتين الخلافة بساحة الحضرة ، وأقيم له هنالك من رسوم الكرامة ما يليق بعظماء القوم أمثاله » (المناهل ص ١١٣) .

٥ — المولى أحمد المنصور وموقفه من الحروب الأسبانية — الانجليزية .

« كان أشدهم تكالباً عليه وأكثرهم جرأة على الاجلاب على ممالكه والتضييق عليه والأخذ بمخنقه إيزبيل سلطانة ممالك بلاد نكلطيرة لإغراء مولانا أمير المؤمنين إياها بمناوأته وشحذ عزائمها على عداوته ومظاهرتها على مغالبته بما أمدها به من النحاس لتفريغ مدافع النار وإطلاق ملح البارود لها بالشراء من ممالكه الشريفة

وإمدادها بالمعادن التى أعوزتها ببلادها فناصبها أيده الله فى وجه عدو الدين وقيض له منها أيده الله بمقتضى حزمه ، وواسع تدبيره ، وشده احتياطه شاغلا يشغله تفرغاً واستجماعاً إلى ما كان أيده الله يصرف إليه وجه عزائمه الماضية من تجهيز العساكر إلى بلاد السودان التى فتحها ، وملك أرضها فتم له أيده الله فى ذلك تدبيره وكمل فى نكاية عدو الدين مراده وقصده واهتزت صاحبة بلاد نكلطير بمظاهرته وطاوعته على ما أغراها به وتوكلت على مفساة الإسناد إلى عالى جنابه والاعتضاد بعظيم سلطانه والاستمداد من شريف إيالته وضخامة ممالكه وقاومت بذلك الطاغية على ضيق خطتها فشمرت لمشاقته ومضايقته فنازلت أولا بعساكرها الأشبونة قاعدة بلاد برتقال من ممالكه » (المناهل ص ١٣٥) .

٦ — تطور الصراع الانجليزى — الأسبانى بعد الأرمادا :

« فازدادت بذلك جرأة عليه وبالغت فى الاحتفال له فملأت عليه البحر أساطيلها وجرت عليه هزائم وأتيح لها عليه الظهور ، وأغلت فى مضايقته حتى هجمت أساطيلها على أسطوله بمرسى قالس من سواحله فنالت منه سبياً ، وتغريقاً وملكت عليه البحر أجمع فكادت أساطيلها تقطع عنه منافع الهند ، ومجابية ، وعطلت على بلاده مرافق البحر والتجر وضاق منها مخنقه إلى اليوم » (المناهل . ص ١٣٥) .

٧ — فيليب الثانى ملك الأسبان والحروب الدينية بفرنسا :

« ذلك أن ملك الأفرنج كان فى القديم من أضخم الدول وأفخم الممالك ، وأوسع الأيلات خطبة وأعمالا ثم رجع القهقرى شيئاً فشيئاً حتى ضاق نطاقه ، وتوزعت ممالكه فغلب على بعضها طاغية قشتالة عند ركود ريح الدولة الأفرنجية ، وتقاصر قدرتها بالضعف العارض للدول عند هرمها ، ووافق ذلك ما كان من تحويل جمهور أهل تلك الممالك إلى الدين الحادث فى الأمم النصرانية المعروف بلا تريان فكان ذلك أعون على خذلان ملك الإفرنج لإطباق رعاياه على الانتقال لهذا الدين فصمم هو على دينه الأول ، وكرام رعاياه يسوقهم بعصى القفر إلى دينه فاستعصى عليه شأنهم فتجافى عنهم وتركهم ودينهم مداجاة وهوادة وليس له مع ذلك وارث يرث ممالكه ذكراً والبنات لا يرثن الملك فى دينهم كما يرثن عند غيرهم من

النصارى فلم يكن أقرب إليه وأحق بأرثه من ابن عم له سلطان أهل نباره الوارث لملكهم من طريق الخؤولة ، وكانوا على دين لاتريان فطمع لذلك طاغية قشتالة فى ملك الإفرنج لانقطاع وارثه وتحول دين أهله فاعتمل فى التضريب بين سلطانهم وقومه وأغرى بعض أهل بارس قاعدة ملكهم بالفتك به فاستحكمت النفرة بينهم وبين سلطانهم وتوجس فى نفسه خيفة من ذلك فانتقل عن بارس إلى روان إحدى ممالكه ووصل يده بيد ابن عمه صاحب نباره ثم عاود باريس منازلا لها فدس إليه أولياء طاغية قشتالة من أهلها بالغدر على يد قسيس فطعنه ثم غالية السلطان المطعون على سلاحه فقتله به فى الحين ثم هلك هو من طعنته فصار بسبب ذلك لصاحب قشتالة من مملكة أفرانصة برطانية ويرجوم والبعض من نباره ، وصارت باريس بعد خروج صاحب أفرنصة عنها ليجيبه ومعناها جماعة تدبر الأمر وصاحب قشتالة معهم فى تلك الليجة كأحد تلك الجماعة ، وكان يمدهم بجيشه الذى بأفلانطس ثم ملك صاحب نبارة ابن عم السلطان الهالك باريس ، واتصل أهل أفرانصة ، وانضم بعض فقويت شوكتهم واستفحل أمرهم ، وتعاظمت صولتهم فسمت هممهم إلى استرجاع ممالكهم ومعاودة سلطانهم وشمروا لمغالبة طاغية قشتالة على ما يليهم من ممالكه فصمدت عساكرهم إلى باريس فنازلوها وأجلبوا على أعماله وممالكه وزاحموه بالمناكب ولاحت لهم بوارق الظهور عليه فتهالكوا لهذا العهد فى مضايقته ووقفوا له بمدارج النفس فضاق منهم مختنقه وتكالبوا عليه مع صاحب بلاد نكلطيرة كل من جهته » (المناهل ص ١٣٦) .

٨ — ثورة الأراضى المنخفضة ضد الأسبان :

« ثم عزروا بثالث الأثافى من أهل فلنضس ، وهم أهل مملكة الطاغية القديمة التى منها أصله وقد انقضوا عليه وصاروا عليه إلباً مع الإفرنج وأهل بلاد نكلطيرة فأضرموا عليه جهات ممالكه ناراً وفتنة وصلى بنار حروبهم براً وبحراً فظهروا عليه ظهوراً أطمعتهم فى انتشار سلكه ومقاسمة ملكه » (المناهل . ص ١٣٦) .

٩ — احتلال الأنكليز لمدينة قادس وأهمية ذلك سياسياً واقتصادياً :

« وفى هذا التاريخ (يقصد الفنستالى سنة ١٥٩٦) عمد إليه أسطول سلطانة بلاد نكلطيرة فى مائتى مركب ونيف مشحونة بجيوش وافرة وعساكر النار على احتفال

عظيم يقدمها دون كشطوبان الذى كان أوفده على أمير المؤمنين والده دون أنطون سلطان برتقال النازع إلى بلاد نكلطيرة عند تغلب طاغية قشتالة على الاشبونة حسبما قدمنا وطارت لذوى زحفها طيارات الطاغية وتصاعدت من الذعر إلى أوكارها مشرقة ومغربة حذاراً من انقضاض التح الكواسر عليها من مراكب أهل نكلطيرة الماثلة لعظمها وجفائها على ثبيج الموج كالمعاقل الحصينة فأجابت على مدينة قادس من مدن سواحل قشتالة ، وهى الباب الأعظم إلى ممالك الطاغية ومتون النظائر الثقيلة من بلاده ، ومحط رجال الأموال الطائلة من أرضه ومرسى أسطوله وفرضة المجاز إلى ممالكه والعقيلة الماثلة على كرسيها من بحر الزقاق آنفة وعزة وتحصيناً فاقتضى عذرتها أسطول الانكليز ، واستباحوا حماها وكانت أغربة الطاغية الأندلسية وأسطوله ( ) مسفر الهند جاثمة عليها ومحامية دونها فأوجف عليها أسطول الانكليز ولم يكن لها من قبل بمدافعته فأوقع بها ، وكانت فيما زعموا خمس مراكب للطاغية مشحونة بالأموال يقال فيها من السلع النافعة بأرض الهند النامية الأرباح يساوى المئين من الآلاف فأتيح للانكليز الاستيلاء عليها والظفر بها واكتسحوا الأساطيل ثم أضرموا أعوادها ناراً فأتى عليها التدمير تغريقاً وتحريقاً ثم اقتحموا المدينة عنوة واستولوا عليها بالسيف غلباً وقهراً فاستباحوها وأطلقوا أيدى العيث فيها فحصلوا من أموالها الطائلة وذخائرها المستبحرة وتجائرها الثقيلة على ما لا يضبطه قلم حاسب ولاذ التجار من أهلها وأكابرها وحاميتها بقصبتها ( ) العساكر ونصبوا عليها مدافع النار وشاهدوا الموت الأحمر فألقوا باليد واستامنوا وطلبوا الإبقاء على مال بداره فداء يقال إنه مائة وأربعون ألف دقاة ، ويقال مائتان ، وبعثوا إلى قومهم بأشبيلية فأعطوها عن يد فأخرج عنهم عساكر الإنكليز فخرجوا متسايلين إلى أرضهم ناجين بأنفسهم من بين الناب والظفر ومغتنمين الإبقاء عليهم واجتمعت على المدينة العساكر وسائر عمارة الأسطول وتهالكوا فى تخريبها ، وأضرموا بيوتها ناراً فأصرعوها إلى الأرض وألصقوا مبانيها وقصورها بالرغام فأصبحت أطلالا دراسة كان لم تغن بالأمس ، وأقاموا عليها ستة عشر يوماً منادين هل من مبارز فأعطاهم الطاعية الأذن الصماء وقد عظمت فيه النكاية وحلت به المصيبة وقد تصاعد أسطول الانكليز لهذا العهد من بعد تخريب قادس مع بحر الزقاق للعيث فى سواحل الطاغية وتدمير أرضه والإجلاب على ممالكه والتضييق عليه والمبالغة

فى نـكايته وهو متطاحن لصولتهم ومستكين لا يئيس له عرق بحركة ولا يختلج منه خافية ولا قادمة لنهوض ولا مدافعة وألبسته هذه المرة الشنعاء الذل والصغار وجللته الهوان عند الملوك أضداده فأطمعتهم فيه وفغروا أفواههم من كل جانب إلى التهامه مكن الله منه بعنايته وعزته حزب الإسلام وجعل ملـكه نهبة سيوف مولانا الإمام » (المناهل . ص ٤٣٧) .

* * *

مصادر البحث :

١ ــ مناهل الصفا . عبد العزيز الفشتالى . مخطوط بخزانة القصر الملـكى بالرباط رقم ٢٧٤ .

٢ - عصر المولى أحمد المنصور الذهبى . أطروحة الدكتوراه للدكتور عبد الـكريم كريم .